الفصل الأول

الوقوف في نقطة الهدف

صورة الطائرة وهي تنقض هاويةً من السماء الزرقاء الصافية، ثم تميل عند اقترابها من البرج الزجاجي المتناسق الرشيق لتخترقه وتنفجر مدوية في كرة من اللهب، أصبحت عنوانا رامزا للقرن الحادي والعشرين. شهدنا جميعا تلك اللحظة، وكل الدمار اللاحق على الهواء مباشرة. اختبر العالم بأسره كارثة الحادي عشر من سبتمبر من خلال قوة وانتشار البث التلفزيوني. اليوم، نعرف بأننا ندرك العالم المحيط بنا عبر وساطة التلفزيون - الذي غدا الآن المحطة الأولى للأخبار، والمعلومات، والترفيه في كل مكان. نحن نعيش في عالم من الصور، عالم من القصص البصرية ضمن "صفقة" شاملة تأتي إلينا، وعلينا، أنى التفتنا - على اللوحات الإعلانية، في الصحف والمجلات، على شاشات التلفزيون، في أفلام السينما - ونقرأ في الصور أكثر مما تخبرنا به. هذه الصورة التعريفية الرامزة مرعبة ومروعة وحقيقية. ولم يقلل من تأثيرها واقع أنها ارتبطت دون جهد منا في ذاكرتنا البصرية مع العديد من الصور الخيالية المصطنعة للكوارث التي شاهدناها على شاشات السينما

والتلفزيون. السؤال المهم هو ما مدى تشكل وانبناء استجابتنا لصورة الحقيقة - مساعينا الحثيثة للتوصل إلى مصالحة مع المعنى الدلالي للحدث الحقيقي - بواسطة هذه الارتباطات والتداعيات. ما هي الروابط الواصلة بين الصور الحقيقية والخيالية التي شكلت علاقاتنا مع العالم الذي نعيش فيه؟

خبرتنا الشخصية المباشرة بالعالم تبقى مقيدة محددة الإطار: الحي الذي نسكنه، المكان الذي نعمل فيه، المدارس التي يذهب إليها أولادنا، الأماكن التي نتسوق منها، أو نتعبد فيها، أو نجد الترفيه والتسلية، والوسيلة التي نتنقل بها. هذا هو عالم حياتنا اليومية المعاشة، مثلما كان بالنسبة لكل الأجيال التي سبقتنا. ما يجعل عالمنا أصغر حجما وأكثر تواصلا واتصالا ليس نوعية الحياة التي نعيشها بقدر ما هو انتشار تكنولوجيا المعلومات التي تزودنا بالتجربة البديلة (تجربة الآخرين) - أي المعرفة والأفكار المتعلقة بما يجري خارج حدود تجربتنا الفردية - وتحضرها إلى بيوتنا. لقد أصبح التلفزيون والمنتجات الثقافية التي يبثها جزءا مهما من حياتنا كتلك الأشياء التي خبرناها بواسطة الاتصال الشخصي المباشر. شعورنا بالهوية، إحساسنا بالانتماء إلى مجتمعات أوسع، تجاربنا الثقافية، معتقداتنا وآراؤنا، لا تتشكل فقط عبر الاتصالات المباشرة في حياتنا

اليومية، لكن أيضا بواسطة العالم الأوسع الذي نختبره من خلال وسائل الإعلام. حقيقة أن العالم شاهد واختبر أحداث الحادي عشر من سبتمبر عبر شاشة التلفزيون لا تمثل سوى جزء صغير من القصة. كيف تكيف الناس في كل مكان مع ذلك الحدث، واستجابوا له، وتأثروا به، وكيف تمَّ أيضا عبر وساطة المجتمع الثقافي المحلي، والتقاليد والأعراف الثقافية، والمصدر الطائفي/المجتمعي لوسائل الإعلام. التلفزيون عرض لنا الحدث؛ وأظهر لنا الطرائق التي نفكر من خلالها بما حدث.

المسلسل التلفزيوني "الجناح الغربي" (The West Wing) يجسد أفضل القيم الأمريكية الليبرالية والثقافة الديمقراطية. حصد المسلسل تسع جوائز من "أكاديمية الفنون التلفزيونية والعلوم" (EMMY) (متفوقا بذلك على أي برنامج في تاريخ التلفزيون). كما وصفته مجلة "تايم" (Time) بأنه "درس وطني بالمواطنية وعلم التربية المدنية" (علم حقوق المواطنين وواجباتهم)[1]. أحداث القصة المتواصلة تدور حول الرئيس بارتليت، الليبرالي الديمقراطي الذي يتمتع بمؤهلات مثالية خالية من العيوب والمثالب، وتعرض عالما موازيا للسياسة الأمريكية، ومرآة افتراضية تعكس الوعي الليبرالي الأمريكي. وعلى شاكلة أية إدارة حقيقية في البيت الأبيض، يكافح الرئيس بارتليت

وطاقم موظفيه ومساعديه لمغالبة المشكلات الشخصية، والفضائح، وجماعات الضغط، والمعضلات المأزقية الأخلاقية للقوة، والقضايا المحلية الداخلية، والسياسة الدولية. في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 2001، بعد ثلاثة أسابيع من الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن، بثت محطة "ان بي سي" (NBC) حلقة خاصة من مسلسل "الجناح الغربي". كانت الحلقة عبارة عن تصوير درامي ومحاولة إبداعية - بمعنى التصوير الخيالي - للتكيف مع الأحداث الحقيقية. لم يقحم المسلسل أحداث الحادي عشر من سبتمبر في عالمه الافتراضي بشكل مباشر، فذلك سيكون مبالغة في الابتذال. لكنه لم يكن بحاجة لذلك: نحن نعلم جميعا الموضوع الذي تدور حوله الحلقة. المهم هو الأسلوب الذي تعامل فيه المسلسل مع القضايا الملحة.

تنقلت حبكة أحداث الحلقة على محورين اثنين، فهناك مجموعة من طلاب إحدى المدارس الثانوية حوصرت في حالة التأهب الأمني حين كانت تزور البيت الأبيض ضمن برنامج تدريبي دعي بـ"الصف الدراسي الرئاسي". وجه المسؤولون أفرادها إلى "المطعم" - "حيث نأكل طعام الغداء" - المجهز بالطاولات والكراسي وبلوح أبيض لكي تكتب عليه حكمة

اليوم. المحور الثاني يدور حول أمريكي من أصل عربي يعمل موظفا في البيت الأبيض اسمه رقيم علي، اشتبه المسؤولون بوجود صلات تربطه بالإرهابيين، ولذلك سجنوه في غرفة مظلمة لاستجوابه بصورة عاجلة. وحين أُبلغ رئيس موظفي البيت الأبيض ليو مكغاري بوجود تهديد إرهابي محتمل داخل البيت الأبيض بدا منذهلا وغمغم قائلا: "حسنا.. كانت المسألة مسألة وقت أليس كذلك؟". فخطر الإرهاب كان أكثر من مجرد تهديد محتمل - إنه أمر محتوم لابد أن يحدث ويقتحم مركز الحياة الأمريكية، الافتراضية أو الحقيقة. وبالتوازن مع درس الحقوق المدنية، ستكون حبكة هذا الموضوع البديل بمثابة استحضار مثير وحي للاستجابة الحقيقية، مواجهة مقلقة وقوية مع العاطفة الخام الفجة.

يبدأ درس الحقوق المدنية بسؤال غير مباشر وإن اتصل قليلا بذلك الذي يفكر به الجميع. سأل أحد الطلاب جون ليمان مساعد رئيس الموظفين قائلا: "إذن.. لماذا يحاولون قتلك!". في عالم "الجناح الغربي" الموازي، تعرض ليمان في حلقة سابقة لإصابة خطيرة حين أطلق عليه مسلحون الرصاص في حفلة رئاسية خلال زيارة له إلى فرجينيا. الرؤساء موجودون دائما على خط النار، ومسلسل "الجناح الغربي" اعترف بالحقيقة عبر قصة

من جزأين افتتحت موسم عرضه الثاني حيث بثت حلقة "في ظل القاتل" في الرابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2000. في ذلك الحادث بالذات، لم يكن الرئيس هو المستهدف بل ابنته زوي. أما سبب الاغتيال فهو أن زوي تواعد الزنجي تشارلي يونغ أحد مساعدي الرئيس بارتليت. تبين أن المسلحين أعضاء في جماعة من النازيين الجدد اسمها "فخر غرب فرجينيا البيضاء". ويبدو من الغريب نوعا ما الإشارة إلى حلقة سابقة ضمن خط الزمن الروائي حين سنشاهد عرضا خاصا صمم ليكون خارج ذلك الخط بشكل واضح. في تقاليد المسلسلات التلفزيونية، تشكل هذه الإشارات سياقا: وفي هذه الحالة بالذات يصبح سياق رعب وإرهاب. ويتصل هنا بثلاث روابط. أولا، يشير على ما يبدو إلى إمكانية أن يتخذ الإرهاب شكلا أمريكيا، ويؤكد أن الكره لا يقتصر على نوع واحد من الجماعات أو المجتمعات. على مستوى آخر، يبدو أن ذلك يتضمن التوكيد على أن مشاعر الكراهية العرقية هي الأشد خطرا وخبثا وضررا وديمومة، وتلك فكرة سنجدها في جوهر العبرة المستخلصة من الحلقة الخاصة من المسلسل. ثانيا، السياق يوفر الفرصة، من خلال الاستطراد المطول من جانب ليمان، للاعتراف بالتأثير الإنساني للعنف. وفي عالم يشعر فيه الناس بمثل هذا التحمس للشخصيات الخيالية، مقارنة بالحقيقية، يصبح السياق وسيلة لدمج وتجسيد

العواطف الوجدانية مهما بدت مبتذلة في مثل هذه الظروف. ثالثا، يحتمل أن المسلسل يرسل إلينا إشارة إيمائية واهية إلى رؤيته المستقبلية أو توكيدا على حقيقة بسيطة: للإرهاب دوما عناصره المشبوهة المعروفة. وفي الحلقة السابقة، حين كانت غرفة العمليات في البيت الأبيض تحاول جاهدة التعامل مع حادثة إطلاق النار، ذكر تقرير إخباري عن الوضع آنذاك أن مكان أسامة بن لادن غير معروف وأن هنالك قلقا من حشود لقوات الحرس الجمهوري العراقي على الجبهة.

حالما أعطيت هذه الإشارات، انتقلت الحلقة الخاصة بسرعة إلى السؤال الواضح: "لماذا يحاولون قتلك؟". وباعتباره منظم هذا الدورة الدراسية حول الحقوق المدنية، قدم ليمان الحجة على أن كافة الأمريكيين مستهدفون حتما، لكن ليس ثمة نزعة لدى "الآخرين" كلهم لممارسة العنف ضد الأمريكيين. وأصر على وجوب تعديل السؤال وتحديده. وهكذا كتب سؤال الاختبار على اللوح الأبيض: "التطرف الإسلامي بالنسبة للإسلام مثل .... بالنسبة للمسيحية"؛ وقدم إجابته: "ك. ك. ك". وأضاف: "هذا ما نتحدث عنه - جماعة 'كلو كلوكس كلان' أصبحت متخلفة وعالمية. والمتطرف الإسلامي لا علاقة له بالمسلمين، بالملايين منهم" - بمن فيهم آلاف العاملين في القوات المسلحة الأمريكية،

والشرطة، والإطفاء. لكن المقايسة لم تخضع للدراسة والبحث والاستكشاف، الأمر الذي جعل من الصعب مساعدة أحد في فهم مصدر وطبيعة التهديد بشكل أفضل.

وهكذا أصبح السؤال المنقح والمحدد: "لماذا يحاول المتطرفون الإسلاميون قتلك؟". للسؤال وظيفة رئيسية، تتمثل في استكشاف الفوارق التي تميز ما بين "نحن" و"هم"، لأن الفروقات والاختلافات، كما يتوقع الجميع، تفسر القوة الدافعة التي تطلق الإرهاب من عقاله. إن الملامح والعناصر والمثل التي تعرف وتحدد أمريكا هي التي يقف ضدها الإرهابيون، ذلك هو الاقتراح المباشر التي تتحول إليه كل المعلومات والنقاشات الموجهة والمنظمة. وبالنسبة للطلاب في المسلسل، يتمثل الفرق المميز بين "نحن" و"هم" في مجرد "الحرية والديمقراطية".

معظم التحليلات اليمينية لأحداث الحادي عشر من سبتمبر اختارت - دون ترو - العزف على هذا الوتر أيضا. على سبيل المثال، أشار ريتشارد بروكهيسر، في عموده في صحيفة "نيويورك اوبزرفر" (The New York Observer) إلى أن الإرهابيين يكرهون حقيقة أن أمريكا "قوية وخيرة"، فهي تعتبر بحق:

تجسيدا للنظام العالمي المهيمن - إمبراطورية الرأسمالية والديمقراطية. مدينة نيويورك تعتبر أيضا محورا لأحد تلك الأنظمة الفرعية، "الدينامو" المحرك المزمجر للثروة. كل إنسان في العالم ينظر إلى قسمته ونصيبه ويجد نفسه تعيسا محزونا، يتطلع إلينا - مدينة وبلدا - ويرى بديلا. فإن امتلك ذهنا طمّاحا، فقد يحاول القدوم إلينا أو تقليدنا. أما إن عانى من شعور بالظلم فسوف يلقي باللائمة علينا. لكنه إن امتلك موارد دولة معادية، أو ما يماثلها، فلسوف يحاول قتلنا.. الفاشلون في العالم يكرهوننا لأننا أقوياء، وأغنياء، وأخيار (أو على الأقل أفضل منهم). وحين يجازى هؤلاء الذين يتصرفون على أساس ذلك الكره، سنعيد بناء برجي مركز التجارة العالمية ونضيف إليهما طابقا آخر، لمجرد إغاظتهم[2].

موضوع الحسد والغيرة ظهر بقوة في معظم وسائل الإعلام اليمينية. في صحيفة "شيكاغو تريبيون" (Chicago Tribune)، وضع توماس فريدمان، الذي ابتكر تعبير "يكرهوننا" في البدايات المبكرة من عام 2001 قبل شهور من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وضع اللوم على "الحسد المحض". وأشار إلى أنه "حتى في نادي الديمقراطيات الصناعية، هنالك حنق وسخط على وضع ومكانة أمريكا باعتبارها أغنى أمة

في العالم، والقوة العظمى الوحيدة فيه، وثقافتها هي السائدة في كل أرجائه"[3]. أما مراسل مجلة "اتلانتيك مونثلي" (Atlantic Monthy) روبرت كابلان، فأعلن في إحدى محطات الإذاعة (NPR) أن جوهر المسألة يكمن في نوع من الكراهية الوجودية لحضارة الغرب الدينامية النابضة بالحياة، وتحدي الطبقة الوسطى في هذا الجزء من العالم، التي تشكل لذلك منافسا للإسلام التقليدي بطريقة لم تشكلها أية عقيدة أخرى من قبل". صحيح أن المسلمين مناهضون للشيوعية أيضا، لكنهم كما يقترح كابلان "لم يكرهوا الشيوعية أبدا، فهي نظام فاشل سقط بمثل هذه الصورة المذلة"[4]. بل إن نجاح الديمقراطية والرأسمالية في أمريكا هو مصدر الكره الحقيقي.

مما لا شك فيه أن مسلسل "الجناح الغربي" يسمو فوق هذا النوع الابتذالي من التحليلات المسطحة الساذجة. فقد اختار، كما يفعل دوما، أسلوبا مثقفا وخبيرا بشؤون الحياة والناس، لتمجيد القيم الأمريكية الإيجابية مثل الذهنية المنفتحة والتسامح، إضافة إلى القيمة الأخلاقية المفضلة لديه: التعددية. يقول ليمان للطلاب: "إنها لفكرة جيدة أن نعترف بأن لديهم بعض الشكاوى المحددة". أما "الشكاوى" التي يعددها فهي:

"الشعب الذي تدعمه أمريكا"؛ "القوات الأمريكية في الخليج"؛ "الحظر المفروض على العراق"؛ "الدعم الأمريكي لمصر". ونعلم أنه يسمع هذه الشكاوى كل يوم. ولأن بمقدورنا الافتراض بأن نائب كبير موظفي البيت الأبيض ليس على اتصال يومي مع الإرهابيين أو المتطرفين الإسلاميين، فإن هؤلاء ليسوا الوحيدين الذي يجأرون بهذه "الشكاوى". وفي هذه الحالة، لربما يكون من المناسب البدء بعملية استكشاف - تثقيفية تعليمية - لهذه القضايا، حتى وإن بدت "الشكاوى" كلمة محايدة لوصف هذه القضايا السياسية المثيرة للخلاف. قد يكون من المهم مثلا التفكير بحقيقة أن مثل تلك "الشكاوى" تأتي من العديد من المصادر المختلفة - من الأمريكيين، والأوروبيين، وشعوب وحكومات العالم الثالث - إضافة إلى المسلمين. وحين تعلن هذه "الشكاوى" على هذا النحو المتكرر، ويرددها العديد من المصادر، أفلا تسهم في خلق الإرهاب، أو توجد الظروف المناسبة لرعايته وتسهيل مهمة تجنيد أتباعه؟ لكن المسلسل يجد أن هذا السؤال لا ضرورة له البتة. إذ يكتفي ليمان بالقول للطلاب: "أعتقد أنهم على خطأ". ولذلك لا ينبغي أن يعيق ذلك درس الحقوق المدنية عن متابعة تناوله للقضايا ذات الأهمية الفعلية.

العامل الذي يفسر حقيقة الإرهابيين، ويحدد اختلافهم عنا، يتصل فقط بطبيعة وتاريخ معتقداتهم. هذا هو جوهر العبرة التي سنستخلصها. إذن ما هو التطرف الإسلامي؟ "إنه التزام حرفي صارم بتأويل تفسيري نصي محدد للشريعة الإسلامية في القرن السابع الميلادي، مثلما مارسها النبي محمد". ويضيف ليمان مؤكدا: "حين أقول 'التزام حرفي صارم' فأنا أعني ما أقول". وبقفزة واحدة، في بداية درس الحقوق المدنية، أجبرنا على الغوص في بحر من المعلومات المضللة التي تسبب ضررا خطيرا للحكم المنطقي الحصيف. فقد بشر النبي بالإسلام في القرن السابع، وفي هذه الحالة، وعبر هذا التعريف، يصبح الإرهاب متأصلا في صلب الإسلام. وإذا كان "الالتزام الحرفي الصارم بالإسلام" كما مارسه النبي محمد (سنته الشريفة) هو ما يشكل التطرف. وعلمنا قبلا أن التطرف لا علاقة له بملايين المؤمنين والمؤمنات بالإسلام. إذن ما هي بالضبط الرابطة بين هذه الملايين ودينها، أو نبيها؟ من المفترض أن هذه الملايين أقل صرامة في الالتزام بدينها. إن سنة محمد تحتل المرتبة الثانية في التشريع الإسلامي بعد القرآن، وذات أهمية جوهرية بالنسبة لكل المسلمين، الذين يهتدون بهديها ويعتبرونها نموذجا يحتذى للحياة؛ كما تزودهم بالقيم المعنوية والمبادئ الأخلاقية للإسلام، إضافة إلى تلك التفاصيل المهمة التي تبين لهم مثلا عدد

الركعات وكيفية أداء الصلاة ومواقيتها. علاوة على ذلك، فإن كافة المذاهب الفقهية الرئيسية، التي تطورت فعلا بعد القرن السابع الميلادي، إضافة إلى جميع الآراء والتفسيرات التي يتبناها المسلمون، تعتبر مؤسسة على/ وتستمد سلطتها المرجعية ومبرراتها من العقل المعتمد على النقل، أي سنة الرسول الكريم. وهكذا، يقدم إلينا المسلسل حدا تمييزيا فاصلا يؤدي إلى الفوضى والتشوش ويفقدنا القدرة على التفريق بين المتطرف الإسلامي والمسلم العادي.

في الحقيقة، وعلى الرغم من أن التحليل الليبرالي في مسلسل "الجناح الغربي" يقدم بلغة أكثر حذرا وتفهما، لكن سرعان ما يتبين لنا أنه لا يبتعد كثيرا عن وجهة النظر اليمينية حول الإسلام والمسلمين. فلغة اليمين عدائية ومتطرفة ومتشددة، كما تتبدى، مثلا، لدى كارينا رولنز كبيرة محرري "أمريكان انتربرايز" (The American Enterprise)، التي كتبت تقول: "إنها لخطيئة فادحة وخطرة، أن نقفز من حقيقة أن المسلمين كأفراد هم أناس أبرياء ومسالمون إلى فكرة أن الأمم والمجتمعات التي يعيشون فيها حميدة وغير خطرة". فالثقافة الإسلامية معادية للغرب جوهريا، ومترعة بالكراهية المتأصلة في صلبها: "ليس ثمة دليل يثبت أن المسلمين المقيمين في

أمـريكا وطنـيون غـيورون بالضـرورة". وفي حـين أن تعلـيقات الرئيس بوش التي أشار فيها إلى أن "الإسلام ليس هو العدو"، تظل طيبة النية، إلا أنها "توكيدات لا أساس لها من الصحة". لأن "الإسلام دين إمبريالي"؛ واليوم يقف "هذا العدو الجديد على بوابة الحضارة"[5]. مجلة "نيوزويك" (Newsweek) طرحت سؤال الكراهية على غلافها؛ وفي الصفحات الداخلية، أشار محرر الشؤون الدولية المعين حديثا فريد زكريا إلى أن"[المسلمين] ينتمون إلى ثقافة تقوي وتعزز ما فيهم من عدائية وكراهية وريبة تجاه الغرب - ولا سيما أمريكا. هذه الثقافة لا تتسامح مع الإرهاب، لكنها تلهب وتثير التعصب الكامن في صلبها"[6]. أما في مجلة "انسايت" (Insight) المحافظة فقد اقترح الصحفي الذي يكتب افتتاحية "بوسطن هيرالد" (Boston Herald) أن يرفض "الأمريكيون العاديون" نسخة الرئيس بوش "المسلية عن الإسلام"، التي تقدمه باعتباره دينا مسالما. فالإرهاب ليس "انحرافا ضلاليا" عن الثقافة الإسلامية بل هو "المعيار الفعلي" لها:

منذ انطلاقته من الجزيرة العربية في القرن السابع، وحتى أواخر القرن السابع عشر، تقدم الإسلام بحد السيف، لينتشر في رقعة واسعة تمتد من البرينيه إلى الفليبين. ولم يتوقف موجه الكاسح إلا على أبواب فيينا. ومنذ انحطاط السلطنة العثمانية

وحتى السبعينيات ظل مده في انحسار. واليوم ينبعث وقد قويت شوكة الإسلام من جديد، بفعل الثروة النفطية، وازدياد عدد السكان، والهجرة، والهبة الأصولية. لقد استعاض عن الفرسان الهمج المتوحشين برجال حرب العصابات، والإرهابيين، والمتدينين، والطغاة ليحملوا راياته[7].

موقف اليمين برمته أوجزته بأسلوب ناعم متقن مقالة مطولة كتبها المؤرخ العسكري فيكتور ديفيز هانسون، وأعيد نشرها مرارا بعد أن ظهرت لأول مرة في عدد فصل الشتاء من مجلة "سيتي جورنال" (City Journal) يقول هانسون: "إنهم يكرهوننا، لأن ثقافتهم متخلفة وفاسدة" ولأنهم "يحسدون قوتنا وهيبتنا ونفوذنا". أما الافتراضات العامة في الأوساط اليسارية والمتعددة الثقافات التي تشير إلى أن "هنالك بعض التكافؤ - السياسي والثقافي والعسكري - بين الغرب والعالم الإسلامي"، أو إلى أن "أمريكا ظلت تتبع سياسة قاسية وفظة تجاه الشرق الأوسط" فهي مزورة مضللة. الديمقراطية، والحكم القائم على رضا المحكومين، والدستور، والحرية، والمواطنة، تعتبر جميعا ابتكارات غربية (إغريقية ولاتينية) بالنسبة لهانسون؛ وليس لها علاقة مع بقية الأمم عموما، وأمة الإسلام على وجه الخصوص. فالمسلمون يشعرون بالغيرة من نجاح وتفوق أمريكا "اللذين لم

ينبثقا من الحظ ولا من الموارد، ولا الموروثات ولا الجغرافيا"، بل من سوقها الحر، ومجتمعها الحر، وقوتها العسكرية قبل كل شيء. هنالك هوة لا قرار لها تفصل أمريكا عن العالم الذي نعيش فيه: "هوة تدعى القوة". ويلاحظ هانسون أن "علينا أن نتذكر أن الطريقة الحربية القتالية التي اتبعها الغرب طيلة ألفين وخمسمائة سنة هي انعكاس لأفكار شديدة الاختلاف فيما يتعلق بالحرية الشخصية، والإمدادات اللوجستية، والمعركة الحاسمة، والانضباط الجماعي، والتدقيق المدني، ونشر المعرفة". فالأوروبيون، لا العثمانيون أو العرب أو الصينيون، هم الذين" استعمروا وسط وجنوب أفريقيا، وآسيا، والمحيط الهادي، والأمريكيتين ولا يعود السبب فقط إلى أن موانئهم مطلة على الأطلسي أو أنهم امتلكوا سفنا عابرة للمحيط، بل نتيجة مواقفهم وتقاليدهم التي تشبثوا بها ردحا طويلا من الزمن حول الاستقصاء العلمي، والتفكير العلماني، والأسواق الحرة، والبراعة الفردية، والتلقائية العفوية". وأضاف موجزا ما سبق:

نحن أقوياء عسكريا، والعالم العربي ضعيف ذليل، لا بسبب تفوقنا في الشجاعة، والعدد، وحاصل الذكاء، أو نتيجة وجود كمية أكبر من الخامات والمعادن النفيسة لدينا، أو الجو الأنسب، بل بسبب ثقافتنا. وحين يتعلق الأمر بالحرب، فإن مليارا

من البشر وبترول العالم كله لا يفيدان من الناحية العسكرية مثل معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أو كلية "ويست بوينت"، أو مجلس النواب، أو سي ـ سبان (Span. C)[8] أو"قانون اوريلي" أو "قانون العاملين في القوات المسلحة"[9]. فما بين [ملك الفرس] احشورُس• على عرش الطاووس المشرف على سالاميس وصدام حسين الواقف على شرفته مستعرضا جنوده، وبين الإغريق وهم يتجادلون ويتحاورون قبل أن ينطلقوا مجدفين مع ثيمستكليز••، والأمريكيين ينتقدون بعضهم بعضا عشية حرب الخليج، يكمن تراث ثقافي على امتداد ألفين وخمسمائة سنة، تراث يفسر السبب الذي يجعل العالم ينقل عنا أسلحتنا، ولباسنا الموحد، وتنظيمنا العسكري، وليس العكس[10].

• احشورس الأول (519؟ ـ 465 ق.م): ملك فارسي (487 ـ 465)، حشد جيشا ضخما وهزم الإغريق ودمر أثينا. لكن بعد هزيمة أسطوله (في معركة سالاميس عام 480 ق.م) وجيشه (479)، تراجع إلى فارس، ثم اغتيل فيما بعد. (م).

•• ثيميستكليز (527 ـ 460 ق.م): قائد عسكري وسياسي أثيني. قاد الأسطول الجديد (الذي أقنع الأثينيين ببنائه) وهزم الفرس في معركة سالاميس. (م).

بالطبع، لا يمكن لمسلسل "الجناح الغربي" أن يكون على هذا القدر من الفظاظة والتطرف الشوفيني. لكن بعد أن يحدد الفارق بين "نحن" و"هم" فيما يتعلق بجوهر الإسلام الأصيل كما افترض، فإنه لا يترك أمامنا سوى قلة قليلة من الخيارات. وهو يستخدم نظام طالبان ليضرب مثلا نموذجيا على هذا الفرق: رجال يُجبرون بالقوة على أداء الصلاة وإطالة لحاهم، ونساء يحرمن من حقهن في التعليم والعمل، ويرجمن أمام الملأ عقوبة على جرائم مثل عدم ارتداء الحجاب، إضافة إلى تحريم السينما والتلفزيون. إن جوهر الفارق المميز الذي يفصل بين "نحن" و"هم" هو افتقاد الخيار الشخصي. " ليس ثمة خطأ في دين تطلب شرائعه من أتباعه إطالة اللحى أو ارتداء الحجاب، بل عندما يصبح انتهاك هذه القوانين جريمة ضد الدولة، وليس ضد الأهل. هذا ما نعنيه بافتقاد الخيار الشخصي"، حسب ما يعلمنا به المسلسل. علاوة على ذلك، إذا كانت جماعة "كلو كلوكس كلان" توفر مقايسة دينية جيدة للمتطرفين الإسلاميين، فإن هناك مقارنة سياسية أيضا. وهنا يستشهد المسلسل بشكل مباشر برسالة واسعة الانتشار كتبها أفغاني أمريكي يدعى تميم أنصاري. المشابهة السياسية تتم هنا بين الطالبان والنازيين، ليحل الشعب الأفغاني محل اليهود في معسكرات الإبادة. إن

معارضة النازيين كانت أمرا أخلاقيا فاضلا، وبالقياس التمثيلي، لابد أن تكون الحرب على الطالبان مبررة كذلك.

ركز عدد من الكتاب اليساريين على هذه النقطة أيضا. وأشهر مثال هو الصحفي كريستوفر هيتشنز الذي استعرض هذا التوكيد بابتذال يفتقد الذكاء والحنكة. لكن المشابهة ليست مربكة وغير ملائمة فقط، بل هي سخيفة كلية أيضا. لسبب واحد، هو أن الطالبان لم يكونوا عنصريين. وفي الحقيقة، فإن المساواة العرقية مثلت معتقدا أساسيا في وجهة نظرهم. صحيح أنهم اتبعوا أيديولوجيا تطهرية متعصبة بالتأكيد، لكنها لم تكن مؤسسة على أية فلسفة مترابطة منطقيا، ناهيك عن أن تكون مفصلة ومتقنة مثل الرايخ الثالث. ولم يكن لديهم لا هايدغر ولا فاغنر. وفي حين أن نظام طالبان قمعي متطرف، إلا أنه لم يمارس التطهير العرقي ولم يرتكب مجازر جماعية، ولا ابتكر غرف الغاز. فأساليبه القمعية تركزت على شعبه فقط. كما لم ينزع إلى الهيمنة على العالم - حتى وإن سمح لابن لادن بالعمل في أفغانستان، ولربما تنازعته مثل هذه الرغبات. لا يمكن أن تصبح نازيا لمجرد أنك ترفض العالم الحديث، أو تجبر شعبك على الالتزام بمعايير سلوكية صارمة، أو التصرف بطريقة شوفينية بشكل عام. إن التشبيه

بالنازية يحقق شيئا واحدا: كبت وقمع الأسئلة ذات الصلة: من أين أتى الطالبان؟ ما هي الظروف والخلفية التي أدت إلى نجاحهم في إسقاط حكومة أفغانستان السابقة؟ لمَ قامت الأغلبية الساحقة من علماء الدين في حركة طالبان ذاتها بإدانة الهجمات على أمريكا باعتبارها محرمة في الشرع الإسلامي؟

لكن إذا مثل الطالبان كافة المتطرفين الإسلاميين، فبالقياس التمثيلي أيضا يصبح كافة المتطرفين إرهابيين. مما دفع الطلاب المجتمعين في العالم الافتراضي لمسلسل "الجناح الغربي" إلى طرح السؤال التالي: متى ارتكبت أول عملية إرهابية؟ يقال لنا إن طائفة سرية بزعامة الملا المتعصب حسن بن الصباح، ارتكبت أول عمل إرهابي في القرن الحادي عشر. إذ قام أتباعه، الذين لقنوا عدم الإيمان بشيء والتجرؤ على كل شيء، بارتكاب جرائم غادرة ضد أبناء جلدتهم المسلمين، وهم في حالة من النشوة الدينية التي استحثها الحشيش، يدغدغ أحلامهم وعد مأمول بدخول جنان الخلد. إذن، لا يعتبر التطرف مكونا أصيلا في الإسلام فقط، بل إن أول الإرهابيين كانوا من المسلمين الذين افترسوا إخوانهم المسلمين! ولذلك، يخلو تاريخ العالم قبل القرن الحادي عشر من أي نوع من الإرهاب. ما تغفله هذه الانتقائية لحقبة معينة من التاريخ هو حقيقة أن "الحشاشين"

(اشتقت الكلمة اللاتينية "Assassin" /سفاك/ من لفظة "حشاش" العربية) ظهروا في سياق الحروب الصليبية؛ واستخدموا من قبل الصليبيين وبعض الجماعات الإسلامية المتنافسة على السلطة. إن استخدام "عجوز الجبل"، كما كان يعرف حسن بن الصباح الغريب الأطوار، لفهم وتحديد أنشطة بن لادن الشائنة، هو شيء، والإيحاء بأن التاريخ الإسلامي هو أصل ومصدر القتلة والإرهابيين الرئيسيين، شيء مختلف تماما. فمن يقوم بعمليات الاغتيال يختلف عن الإرهابي؛ هنالك فرق بين التعبيرين والأفعال المتضمنة في كل منهما. فالذي يقوم بعملية الاغتيال يرتكب جريمة سياسية: يستهدف فيها ملكا أو وزيرا تعرض لظلمه. أما أول من صاغ تعبير "إرهابيين" فهو السياسي والكاتب البريطاني (الايرلندي المولد) ادموند بيرك (1729 ـ 1797)، في معرض إشارته إلى أولئك الذين مارسوا "الإرهاب" بحد المقصلة في تلك المرحلة الدموية من الحملة في سبيل الحرية والإخاء والمساواة التي عرفت باسم الثورة الفرنسية. الاغتيال جريمة ذات دوافع سياسية موجهة ضد أفراد معينين، وليست مصممة لقتل عابري السبيل والمتفرجين الأبرياء. أما الإرهاب فهو عدوان ذو دوافع سياسية، صراع حربي، يحدد طبقات وجماعات بأكملها من الناس، أو الأمم، كأعداء يتحملون المسؤولية والذنب بشكل جمعي. الإرهابي لا يعتبر ـ حسب الخطة المرسومة ـ أحدا من العدو بريئا،

فكل فرد من أفراده هدف محتمل، وإن لم يكن بالضرورة مستهدفا بالنية في كل حالة محددة.

مما لا شك فيه أن هذه الفروقات التمييزية شديدة التعقيد وبالغة العمق ليس فقط بالنسبة لمسلسل تلفزيوني، بل حتى للتحليل المعياري المقدم من قبل الكتاب اليساريين واليمينيين على حد سواء. في مناقشة مسلسل "الجناح الغربي" لقضية الإرهاب، سئل سام سيبورن، الذي يقدم إلى الطلاب باعتباره خبيرا مقيما في البيت الأبيض تخصص في هذا الموضوع، عن أكثر الأشياء التي صدمته في الإرهاب، فأجاب دون تردد: "معدل فشله البالغ 100٪". ولربما كان المقصود بالجواب تهدئة مشاعر القلق لدى الرأي العام، لكن من الصعب أن يصدق على تاريخ الإرهاب. يقول سيبورن أن معدل الفشل التام للإرهاب ناتج عن: 1) إن الإرهابيين "يخفقون فيما يسعون عليه"؛ 2) و"ينجحون دوما في تعزيز وتقوية ورص صفوف من يتصدون لمواجهتهم". حتى مجموعة من طلاب المدرسة الثانوية لا يمكن أن يترددوا في الاعتراض على ذلك. فماذا عن الجيش الجمهوري الايرلندي (IRA)؟ يرد سام قائلا: "حسنا، ما زال البريطانيون والبروتستانت هناك". لكن ذلك لا يمثل بالضبط الأهداف السياسية للجيش الجمهوري الايرلندي. الجواب إذن يتجاهل أن

إخراج البريطانيين يشكل الآن، وشكل منذ عهد بعيد، اقتراحا مقبولا سوف يقرره الناخبون البروتستانت والكاثوليك. كما لا يدرك القصة المعقدة لنهوض جمعية "الشين فين"، التي أصبحت لها الآن مكاتب تعمل منها في منطقة ويستمنستر حيث يقع البرلمان البريطاني. ثم يقول سيبورن إن متطرفي الباسك لم يحققوا أية نتائج حتى الآن، وهذا يغفل مرة أخرى التنازلات الكبيرة التي قدمتها إسبانيا متمثلة في منح إقليم الباسك مزيدا من الحكم الذاتي. كما أن "الأولوية الحمراء، وجماعة بادرماينهوف، والوذرمن، سعت جميعا لقلب الأنظمة الرأسمالية، لكن الرأسمالية أبلت بلاء حسنا". كل هذا صحيح، لكن الاضطراب ما زال كامنا تحت السطح، ولم يتوقف انتقاد الرأسمالية (أنتج المسلسل قبل موجة أعمال العنف الأخيرة التي قامت بها الأولوية الحمراء في إيطاليا). يظل كل من هذه التوكيدات عرضة للتشكيك والمساءلة، مثلما هو الهدف الذي استخدمت هذه الجماعات المختلفة العنف السياسي لتحقيقه في كل سياق تاريخي. لكن مسلسل "الجناح الغربي" تجنب كلية أي اعتبار لحقيقة أن حملات الإرهاب قد أدت في نهاية المطاف إلى المفاوضات السياسية، والتنازلات، وحتى "العلاقات الودية"، ثم أفرزت التغيير.

بدون أية عقبات، انتقل النقاش إلى مسألة الاحتجاج السلمي، وهو موضوع وثيق الصلة على ما هو مفترض، رغم أن طبيعة هذه الصلة تستحق مزيدا من المناقشة والتفكير بدلا من وضع كل النقائض في بوتقة واحدة. إذ ينبغي علينا توضيح هذه العلاقة أكثر من أي شيء آخر في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر. نحتاج لأن نأخذ بالاعتبار الفوارق المميزة بين الأفراد والمجموعات التي تسعى لتحقيق أهداف متشابهة - بل حتى متماثلة - تولد برغم ذلك حملات مختلفة، وسياسات متباينة، وأنواعا متفاوتة من الحشد والتعبئة. ويكتفي المسلسل بالتوكيد لنا على أن الاحتجاج السلمي نجح مع غاندي وحركة الحقوق المدنية. وبالتالي فإن الإرهاب، من هذا المنظور، مكون من عدة أشياء - مصطلح واسع بما يكفي ليشمل كل شيء، بدءا من القاعدة (التي لم يأت المسلسل على ذكرها صراحة) وانتهاء بغاندي، مرورا بالثوار الأمريكيين في "حفلة شاي بوسطن" (حيث يعلمنا المسلسل بأنهم أعلنوا الحرب بدماثة وكياسة!)، ومع ذلك يبقى التعهد قائما بضمان صوابية الحكم القائل بأن الإرهاب يفشل دائما.

ننتقل الآن إلى الخيارات المروعة التي يقدمها الإرهاب للمجتمع: التوازن بين الحرية والأمن. أحد الطلاب استشهد

بالقول المأثور عن بنجامين فرانكلين: "أولئك الذين يستطيعون التخلي عن الحرية الأساسية للحصول على بعض الأمن المؤقت لا يستحقون لا الحرية ولا الأمن". المسلسل يدافع دفاع المستميت عن دولة الأمن القومي، كما عرضتها سي. جي. كريغ، السكرتيرة الصحفية للبيت الأبيض. أما الاعتراضات الليبرالية فيقدمها مدير الاتصالات توبي زيغلر. جوهر النقاش يتركز على إقناع الطلاب بالحاجة إلى تجنيد جواسيس، ولربما يتطلب الأمر تسجيل المكالمات الهاتفية، وبالتالي يجب التضحية ببعض الحريات التي يتمتع بها المواطنون الأمريكيون إن أرادوا الشعور بالأمان. فواقع الإرهاب يفرز خطرا واضحا وداهما وراهنا، وفي سبيل مكافحته تحتاج أمريكا إلى شركاء لا يؤمنون كثيرا بالحرية والديمقراطية، ولا يختلفون كثيرا عن طالبان. وكما تعترف كريغ، فإن لهذه "الأجندة" تبعات وعواقب على حرية الكلام والتعبير، ولا تبدأ بالتعامل مع مشكلة المواطنين الذين" يتعرضون للقتل على أيدي قوات الشرطة الوطنية لأنهم صرحوا بآرائهم". ومع ذلك فهي تلح على أننا بحاجة للإقرار بأن العمليات السرية التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية (CIA) ليست ضرورية ومفيدة فقط، بل إن نجاحها وتأثيرها لا يحتاجان إلى إثبات. وتعدد كريغ الانتصارات التي تحققت في الماضي القريب: لم يتمكن السوفييت أبدا من عبور نهر البا، وبقي الكوريون

الشماليون خلف خط العرض 38، والألفية مرت بسلام. وبالرغم من كل الأخطار المتأصلة التي تهدد الحرية، مثل اللوائح السوداء، والحملات الشعواء على المنشقين والمعارضين (على الطريقة المكارثية)، والاعتقال غير القانوني، فإن الأمن يدين بفضل إلى هذا النوع من الحلول العلاجية المطلوبة لإلحاق الهزيمة بالإرهابيين. وإذا بدا كل ذلك مبالغا في التطرف والشدة "فلا شيء أكثر التصاقا بأمريكا من بناء التحالف مع الأصدقاء"، كما أخبرت كريغ الطلاب. و"أول شيء فعله جون واين على الدوام كان حشد الأنصار". إذن، بالنسبة لمسلسل "الجناح الغربي" الذي لا يترك مناسبة إلا ويستعرض فيها أوراق اعتماده الليبرالية الجديدة، فإن قانون حشد الأنصار، والعمليات السرية، وتدخل الولايات المتحدة (العسكري وغيره) في مختلف دول العالم، لها جميعا مسوغاتها التبريرية باسم الأمن والأمان والطريقة الأمريكية. ولا يثير المسلسل مسألة أن هذه الأنشطة قد تكون إحدى "الشكاوى المحددة" التي يجأر بها أولئك الذين "يكرهوننا".

لكن بالنسبة لتشالمرز جونسون، المتقاعد من الحرب الباردة والذي يدرس الآن في جامعة كاليفورنيا، ليس ثمة مجال للشك في هذه الحقيقية. فهذه العوامل والجوانب في

السياسة الأمريكية الخارجية بالضبط هي التي ولدت الكراهية للولايات المتحدة وسلطت سيف الإرهاب على عنقها. ففي حديث له بعنوان "أخذ كل الأمور بعين الاعتبار" بثته محطة "NPR" الإذاعية، حلل جونسون ما حدث مستخدما تعبير "الضربة التي ترتد إلى النحر"، الذي ابتكرته وكالة المخابرات المركزية (CIA) في الخمسينيات للإشارة إلى النتائج العكسية غير المقصودة للعمليات السرية التي عادت لتستحوذ على الولايات المتحدة من جديد. حين استخدم التعبير لأول مرة، كان يشير إلى عواقب محاولة الوكالة اغتيال محمد مصدق رئيس الوزراء الإيراني آنئذ. "نتيجة هذا التدخل الفاضح في شؤون إيران، عاد الشاه إلى السلطة لتتبع ذلك حقبة امتدت ربع قرن من القمع والاستبداد والديكتاتورية، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى اندلاع ثورة آية الله الخميني واحتجاز كل العاملين في السفارة الأمريكية في طهران رهائن لمدة زادت عن السنة"، كما قال. ثم قدم الحجة على أن التوسع الدائم للإمبراطورية الأمريكية، و"امتدادها المفرط في انتشاره" يشكلان السبب الأساسي "لأحداث الحادي عشر من سبتمبر"[11]. نعوم تشومسكي، أستاذ اللسانيات في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، الذي أمضى حياته كلها معارضا، عبر عن آراء مشابهة. فقد استبعد تشومسكي الأعذار الذرائعية "الدارجة" التي يقدمها اليمين

واليسار على حد سواء. وقال في مقابلة مع محطة إذاعية في بلغراد: "مثل هذه التبريرات تناسب الولايات المتحدة ومعظم دول الغرب". واستشهد بتحليل نشرته صحيفة "نيويورك تايمز" (بتاريخ 16 سبتمبر) أشار إلى أن "المتآمرين ارتكبوا فعلتهم بدافع الكره للقيم التي يتعلق بها الغرب مثل الحرية، والتسامح، والرخاء، والتعددية الدينية، وحق الانتخاب للجميع". أما تصرفات وأفعال الولايات المتحدة فلا علاقة لها بالأمر، ولذلك لا ينبغي حتى ذكرها. وتلك صورة مريحة، لكنها "تتعارض كلية مع كل ما نعرفه، وتتمتع بكل مزايا تملق الذات والتأييد المنحاز للقوة"[12]. في مناسبة أخرى، طلب تشومسكي من الأمريكيين "إدراك حقيقة أن الولايات المتحدة تعتبر في معظم أنحاء العالم دولة إرهابية مجلية، وهنالك أسباب وجيهة لذلك. ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن محكمة العدل الدولية، مثلا، أدانت الولايات المتحدة عام 1986 بتهمة استخدام القوة غير القانوني، (الإرهاب الدولي)، كما عارضت الولايات المتحدة قرارا أصدره مجلس الأمن يطالب فيه كل الدول (ويقصد الولايات المتحدة) بالالتزام بالقانون الدولي"[13].

تعريف مسلسل (الجناح الغربي) للإرهاب أكثر تبسيطا: إنه نتاج للتعصب الذي يحرضه ويحفزه عدم القدرة على القبول

بوصفة المسلسل السحرية لكافة المشاكل: التعددية. التعددية بطبيعتها إذن تشكل تهديدا داهما لوجود كل المؤمنين الملتزمين بنظام لا يسمح بأي انحراف عن شريعته وممارسته، ويفرض على اتباعه خضوعا شموليا. وأولئك الملتزمون بهذه الأنظمة الصارمة المتصلبة لا يتعرضون فقط لتهديد الطبيعة التعددية للمجتمع الأمريكي، ووجود أديان ومعتقدات مختلفة، وأعراق وأجناس وأساليب حياة تتعايش جنبا إلى جنب وتمارس بشكل حر ومفتوح، ولكن تتهددهم أيضا القدرة على التفكير بجملة متعددة من الأفكار حول أي موضوع. مرة أخرى، يغطي النموذج المنمط على التاريخ ويحشد المعلومات الضرورية التي يحتاجها الرأي العام - الناقص المعرفة - كي يفكر. إن تاريخ المجتمع الإسلامي والإسلام كدين وتشريع مؤسس على تسامح التعددية. فالإسلام نظرة تعددية في الجوهر للعالم، مثلما يؤكد تاريخه بكل وضوح. فعلى سبيل المثال، شهد أحبار وعلماء اليهود عصرهم الذهبي في إسبانيا حين كانت تحت حكم المسلمين. وعندما شنت مملكة "الملوك الكاثوليك" بزعامة فيردناند وايزابيلا حرب استرداد الأندلس من المسلمين، تطلبت روح النقاء العرقي/ القومي السائدة آنذاك طرد اليهود، ولم يجد هؤلاء ملجأ يلوذون به ويستقبلون فيه بالترحاب في طول العالم وعرضه إلا في السلطنة العثمانية المسلمة. إن للتعددية تاريخا أيضا، وذلك

بغض النظر عن كونها تطورا اقتصر على المجتمع الحديث. لكن هذا لا يجب أن يعكر صفو درس الحقوق المدنية وتوكيداته في الحلقة الخاصة من مسلسل "الجناح الغربي".

يقر المسلسل فعلا بأن ثمة مشكلة في كون المرء مسلما. ويظهر ذلك في الحبكة الفرعية، التي تدور حول التحقيق مع رقيم علي. فهذا الموظف في البيت الأبيض الذي يحمل اسم أحد الإرهابيين المطلوبين، من أصل عربي تخرج من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. ألقي في مكتب مغلق حيث يتوجب عليه تفسير مساهمة أبيه في منظمة اسمها "المدافعون عن الأرض المقدسة"، ومشاركته في تظاهرات تحتج على وجود القوات الأمريكية في منطقة الخليج. يشرح علي قائلا إن الهدف الحقيقي - في رأيه - للتدخل العسكري الأمريكي هو حماية المصالح النفطية الأمريكية. لكن اعتراضه الأساسي ينصب على المعايير المزدوجة. اعتراضات علي استحثت دفاعا أبويا عن السياسة الخارجية الأمريكية من جانب ليو مكفاري، كبير موظفي البيت الأبيض الذي يتمتع بقدر استثنائي من اللطف والدماثة. يقول: "لربما نستطيع أن نعلمه". وبالرغم من كل المؤهلات الليبرالية، تظل هذه الحبكة الثانوية واضحة ومثيرة ولا تقدم أي اعتذار. إذ يقول علي إنه ليس من غير الشائع بالنسبة

للعرب الأمريكيين أن يكونوا أول من يشتبه بهم "حين يحدث مثل هذا النوع من الأمور"، وهذا شيء "مروع". ويرد ليو اللطيف الدمث ناطقا باسم الجماهير: "لا يمكن أن أتخيل السبب. لا! أنا أحاول أن أكتشف لماذا يفترض الناس كلما حدثت عملية إرهابية أن المنفذين هم من العرب". ثم أوصل نفسه تدريجيا إلى قمة الإثارة مع الملاحظة الحاسمة: "إنه ثمن تدفعه". إذن، تلك هي الحقيقة. فهناك ثمن يجب أن تدفعه إذا كنت مسلما: وهذا جهل انفعالي يخلط العربي مع المسلم، والشرق الأوسط مع الإرهاب (حتى وإن أكد تقرير لوزارة الخارجية صدر عام 1997 على أن الإرهاب المنطلق من الشرق الأوسط يحتل المرتبة السادسة من حيث الوتيرة)، والسياسة مع الدين، لإنتاج الأرضية المنطقية للسيناريو الذي يشير إلى وجود عدو حقيقي في الداخل. وكما يفترض، يجب على علي أن يدفع نفس الثمن الذي دفعه الأمريكيون اليابانيون الذين شاء لهم حظهم التعيس أن تكون وجوههم كوجه العدو خلال الحرب العالمية الثانية، ولذلك من المباح اعتقالهم وحجزهم وتجريدهم من ممتلكاتهم ووسائل كسب عيشهم من أجل الأمن القومي. أنهيت الحبكة الثانوية فجأة حين ظهر رقيم علي "الآخر"، المشبوه الحقيقي، في المانيا، تاركا بطل هذه المشاهد، ليو اللطيف الدمث المترع بالمشاعر الإنسانية، ليفكر متأملا بما قال.

لكن آراء ليو لا يوافق عليها كافة الأمريكيين. هل يعتبر الأمريكي المسلم مختلفا عن الأمريكي الايرلندي أو الإيطالي مثلا؟ هل يجب على المسلمين دفع ثمن مجرد كونهم مسلمين؟ هل ينحصر تطبيق المساواة في أنواع وأعراق معينة من الأمريكيين دون سواهم؟ ليس ثمة أي شك بذلك لدى دينيس كوسينيتش، عضو الكونغرس عن كليفلاند (اوهايو)، والمدافع القديم المحنك عن حرية التعبير والكلام والحريات المدنية. فقد ألقى خطابا أمام "حركة الأمريكيين في جنوب كاليفورنيا من أجل الديمقراطية" في لوس أنجلوس صاغه على شكل صلاة ابتهالية بدأها بإعلان يقول فيه:

إن هنالك حقيقة أشد عمقا تعبر عنها وحدة الولايات المتحدة. وما يتضمنه اتحاد بلادنا هو اتحاد كل الشعب. الشعب الأمريكي برمته بكل شرائحه وأفراده مهم وجوهري. والعالم لا تترابط أجزاؤه على المستوى المادي فقط، من خلال الاقتصاد، والتجارة، والاتصالات، والمواصلات، لكنها تترابط أيضا بواسطة المشاعر القلبية الإنسانية، عبر قلب العالم، عبر نبضاته التي يعبر عنها بأبسط الأشكال، والتوق المتلهف للتحرر وتنفس الحرية. لذلك أبتهل وأصلي من أجل أمريكا.

وفي تعارض حاد مع توكيد مسلسل "الجناح الغربي" على أهمية وضرورة أنشطة وكالة المخابرات المركزية(CIA) ومكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، من أجل الحفاظ على الحرية والديمقراطية، أشار كوسينيتش إلى أن إطلاق العنان لمثل هذه الوكالات يضعف القاعدة المؤسسة للدستور الأمريكي ذاته إضافة إلى أفكار الحرية والديمقراطية. وابتهل إلى الله أن لا تسقط أمريكا في شرك "ذهنية الحصار"، في فخ "مناورات الوطنية المتعصبة، ومناورات الفكر، ومناورات الحرب التي يقوم بها رئيس غير منتخب ونائبه غير المنتخب". صلى من أجل ألا تنبذ أمريكا "ضمانات العدالة الدستورية"، وتلغي التعديل الأول للدستور (الحق بحرية الكلام والتجمع السلمي)، والتعديل الرابع (حظر الاعتقال لمدة غير محددة دون محاكمة)، والتعديل السادس (الحق بمحاكمة علنية عاجلة)، والتعديل الثامن (الذي يحمي المواطن من العقوبة الوحشية والاستثنائية). صلى من أجل أن تصغي أمريكا لصوت الشعب، وعدَّد مجموعة مختارة من الممارسات والأفعال التي ارتكبت باسمه لكن بدون أن يصادق أو يوافق عليها:

لأننا لم نفوض أحدا بغزو العراق.

لم نفوض أحدا بغزو إيران.

لم نفوض أحدا بغزو كوريا الشمالية.

لم نفوض أحدا بقصف المدنيين في أفغانستان

لم نفوض أحدا بحبس المعتقلين إلى الأبد في سجن غوانتانمو.

لم نفوض أحدا بالانسحاب من اتفاقية جنيف.

لم نفوض المحاكم العسكرية بتعليق العمل بالاجراءات المتبعة وأوامر المثول أمام القضاء.

لم نفوض أحدا بتشكيل فرق الاغتيالات.

لم نفوض أحدا بإحياء "برامج مكافحة التجسس"[14]

لم نفوض أحدا بإلغاء وثيقة الحقوق.

لم نفوض أحدا بإصدار بطاقات هوية وطنية.

لم نفوض "الأخ الكبير" بمراقبتنا ليل نهار في مدننا.

لم نفوض أحدا بتبني "مبدأ العين بالعين".

ولم نطالب بالثأر لدماء الأبرياء الذين قضوا في الحادي عشر من سبتمبر، من دماء القرويين الأبرياء في أفغانستان.

obeikandl.com

لم نفوض الإدارة بشن الحرب في أي وقت، وفي أي مكان، ومتى شاءت ورغبت.

لم نفوض أحدا بشن حرب لا نهاية لها.

لم نفوض أحدا بتبني اقتصاد الحرب الدائم[15].

وعلى شاكلة كثير من النقاد والمعلقين الغاضبين الذين أرغوا وأزبدوا، امتنع مسلسل "الجناح الغربي" بدون تحفظ عن التفكير بتاريخ أمريكا ذاته، إضافة إلى تاريخ تفاعلها مع العالم خلال العقود الخمسة الأخيرة. بعد الحادي عشر من سبتمبر، هيمن هذا التاريخ على عقول الكتاب والمفكرين اليساريين، والعديد منهم اعترضوا على الموقف الأخلاقي السامي الذي تتخذه أمريكا بشكل آلي. تميزت معظم هذه الانتقادات بحدتها اللاذعة. فعلى سبيل المثال، أعلنت مجلة "لندن رفيو اوف بوكس" (London Review of Books)، وهي مجلة أدبية نصف شهرية تحررها مجموعة من الكتاب الذين يسهمون بمقالاتهم بانتظام، أن أمريكا تستحق أن يكرهها العالم. وفي مقالة تعرضت لكثير من النقد قالت ماري بيرد المحاضرة في الآداب الكلاسيكية في جامعة كمبردج: "إن الولايات المتحدة نالت جزاء ما فعلت". "فالمستأسدون في العالم، حتى وإن كانت قلوبهم في مكانها الصحيح، لابد أن يدفعوا الثمن في نهاية

المطاف"[16]. أما الروائي والناقد الهندي اميت شودري فقارن الحكومات الأمريكية برئيسة وزراء الهند السابقة انديرا غاندي. إذ تظاهرت السيدة غاندي بأنها ديمقراطية، ومحبة للحرية، وعلمانية، في حين استخدمت في الواقع كل وسيلة لا ديمقراطية، وقمعت وكبتت كل حرية، وأججت النيران الدينية لتأبيد حكمها وحكم حزبها وهيمنته. كما تلاعبت ببنية الهند الفيدرالية، وسببت الاضطراب والفوضى وعدم الاستقرار في الولايات التي تحكمها أحزاب المعارضة، وأوقعت بين السيخ والهندوس والمسلمين لتحقيق مآربها. ودعمت وشجعت على وجه الخصوص الأصوليين السيخ، مثل جارنيل سينغ بيندرانوال وحزبه (حزب اكالي دال). وحين انقلب بيندرانوال على السيدة غاندي واتخذ ملجأ له في المعبد الذهبي في امريتسار، استخدمت الجيش لمهاجمة المعبد وقتله. وما حدث بعد ذلك لا يشكل مفاجأة: اغتيلت السيدة غاندي على يد حراسها السيخ؛ وقتل الغوغاء من حزبها آلاف الأبرياء من السيخ في نيودلهي. يضيف شودري قائلا:

> وعلى شاكلة السيدة غاندي في الهند، نصبت أمريكا نفسها نصيرا عظيما للديمقراطية في العالم الحديث، بينما تعاملت معها في واقع الأمر باعتبارها إزعاجا

مريكا وعقبة كأداء حين تعترض مصالحها الذاتية. فهي تبرر الآن الحرب بذريعة التحدث "باسم الشعب"، لكن إرادة الشعب في فلسطين ظلت طيلة عقود من السنين لا تعني أكثر من حطام حجارتها. ولكي تستأصل الشيوعية من أفغانستان، قامت بتسليح جماعة دينية متطرفة؛ وخلقت، في واقع الأمر، بيندرانوال آخر. لقد بقيت سياسة أمريكا الخارجية طيلة سنين عديدة، مثل السياسة الداخلية التي تبنتها السيدة غاندي، مهتمة فقط بتوسيع مجال نفوذها مهما كان الثمن. لا يستطيع إلا الرأي العام الأمريكي أن يمارس الضغط على/ ويغير السياسة الضالة المنحرفة: لكن المصدر الرئيس لمعلومات الرأي العام الأمريكي حول سياسة الحكومة الخارجية هو هوليود بكل صورها الخيالية المريعة وخطابها المنمق المرعب عن "الخير" و"الشر"[17].

وتبعا للروائية دوريس ليسنغ، تعتبر أمريكا بلدا "يؤخذ فيه كل شيء إلى حدوده القصوى". وفي مساهمتها في منتدى مجلة "غرانتا" (Granta) حول "رأينا بأمريكا"، أشارت ليسنغ إلى أن "ردة الفعل على أحداث الحادي عشر من سبتمبر - بكل فظاعتها - تبدو مغالية في تطرفها من منظور الأجانب خارج الولايات

المتحدة، وعلينا أن نقول ذلك لأصدقائنا الأمريكان، برغم حساسيتهم الفائقة تجاه هذا الأمر، واستعدادهم لقطع العلاقات مع مطلقي الاتهامات التي تتصف بقساوة القلب وانعدام الرحمة". ودافعت عن تعليقات ماري بيرد عبر الإشارة إلى أن "الحكم 'بأنهم نالوا جزاء ما فعلوا' ، الذي قوبل باستياء غاضب، ربما أسيء فهمه. ما شعر به الناس هو أن الأمريكيين قد عرفوا أخيرا بأنهم مثل غيرهم، عرضة لثعابين الحسد والانتقام، ولانفجار القنابل على ناصية أي شارع (مثل ايرلندا)، أو في فندق تنزل فيه الحكومة (مثل برايتون). لقد قالوا بلسانهم بأنهم طردوا من جنة عدن الخاصة بهم. وكم هو غريب أن يظنوا بأنهم عاشوا في الجنة الحقة". وبعد أن استحوذت عليهم حمى المشاعر الوطنية المتطرفة، يرى الأمريكيون أنفسهم "أمة فريدة، وحيدة، مطوقة، أساء الآخرون فهمها، ويعتبرون أي انتقاد لهم بمثابة خيانة"[18]. أما هارولد بنتر الكاتب المسرحي الشهير فكان أشد قسوة في انتقاده. إذ كتب يقول إن الولايات المتحدة "مارست سياسة القوة بطريقة مستدامة، ومنهجية، ووحشية، ورصينة، وغير قويمة في مختلف أرجاء العالم، في حين قنعتها بقناع القوة الهادفة لصلاحه وخيره". وهي دولة "متغطرسة تزدري القانون الدولي ولا تبالي به، وتتجاهل وتستغل وتتلاعب بالأمم المتحدة: هذه هي الآن أخطر قوة عرفها العالم في تاريخه.

'الدولة المارقة' الأصيلة، لكنها 'دولة مارقة' تمتلك قوة عسكرية واقتصادية هائلة". العالم عانى ما فيه الكفاية من أمريكا. والآن، هنالك "شعور طاغ بالتقزز والقرف من استعراض وتمظهر قوة الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية التي تنمو وتتفاقم في العالم لتصبح قوة مرعبة بحكم حقها الذاتي"[19].

بالطبع، لم تمر كل هذه الآراء دون اعتراض ودحض. فنفس الفكرة التي تقول بأن الولايات المتحدة تقطف ثمار الاستعمار اليانعة تعرضت لهجوم العديد من المعلقين باعتبارها موقفا يصفح عن الشر ويتغاضى عنه. جو كلاين، مؤلف كتاب "ألوان أساسية"، ومراسل صحيفة "نيويوركر" في واشنطن، رفض الفكرة باعتبارها مجرد "شكوى مفلسة أخلاقيا"[20]. ومعظم الذين انتقدوا أمريكا وسياستها الخارجية جرى التعامل معهم بأسلوب لا يختلف كثيرا عن معاملة رقيم علي في مسلسل "الجناح الغربي". كما ذكرت صحيفة "الغارديان":

بعد أيام من الهجمات القاتلة على نيويورك وواشنطن، بدا أن كل الذين انتقدوا أمريكا أو العولمة علنا قد وجدوا أنفسهم فجأة متهمين بالتواطؤ مع أسامة بن لادن في ارتكاب الجريمة - بل أسوأ. في الصحافة البريطانية وحدها وصفوا بأنهم: "انهزاميون" و"غير وطنيين"

و"عدميون" و"مازوخيون"، "وستالينيون" و"فاشست" في آن معا؛ وبأنهم من "عصابة بادر ـ ماينهوف"، و"خدام لأسامة" و"أعوان للديكتاتوريين"؛ وبأنهم "ضعفاء"، "رعاديد"، "حمقى تحجرت قلوبهم"؛ "أكلهم عث الدعاية السوفييتية"؛ وأنهم متخمون "باللغو الفارغ"، "والعناد وخداع الذات"، وفي حالة من "الانحطاط الفكري"؛ وبأنهم مجموعة من "الأغبياء النافعين"، "والموتى الأحياء"؛ وأنهم "أناس يكرهون الناس"[21].

الأحداث الكونية، مثل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، لا تسمح لك بالوقوف على الحياد. ولا ينبغي أن يفاجئ المرء كثيرا بسيل الشتائم التي تنهال عليه لأنه اتخذ موقفا لا يستسيغه الآخرون. لكن الأحداث الكونية الجسام تتطلب أيضا استخلاص نتائج شمولية. قبل انتهاء حلقة "الجناح الغربي" الخاصة، طرح درس الحقوق المدنية سؤاله الختامي: كيف بدأ كل هذا؟ بحلول ذلك الوقت، ظهرت السيدة الأولى في "المطعم"، واختيرت لتجترح الجواب الذي شكل عنوان هذه الحلقة الخاصة من المسلسل: "اسحق وإسماعيل". وتبعا للسيدة الأولى، تبدأ المشكلة بالقصة التوراتية التي تناولت إبراهيم وأولاده. "وهكذا بدأت: اليهود، أبناء اسحق والعرب، أبناء إسماعيل". وفي هذه

الحالة، يفهم الهجوم على أمريكا عبر صلته المباشرة بقضية إسرائيل، وقضية إسرائيل تفسَّر بواسطة جدل خلافي مع الأصول التوراتية، خلاف عَبَر الزمان ليوقع الفوضى والاضطراب والكارثة. وإذا كان الخلاف - الذي هو أبعد ما يكون عن النزاع على الأرض - ذا أصول توراتية وبأحجام توراتية، فإن من الصعب العثور على حل سياسي حقيقي أو معتمد على السياسة. ليس بأيدينا - كأفراد، وأمريكيين، وشعوب - أن نفعل الكثير. وهكذا يصبح المسار الذي اقترحته وزيرة العدل الكندية، آن مكلينان - "يجب علينا أن نخمن بصدق لماذا نعتقد بأن هذا يحدث"، وإذا "كان هناك أية ضرورة" لتغيير "سياستنا أو مقارباتنا" - يصبح طويلا ومسهبا[22]. ليس ثمة ضرورة للتغيير. وعندما يقال كل شيء، يرفض مسلسل "الجناح الغربي" مجابهة القضية الحقيقية ويفضل تجنب ما ينبغي عليه فعله.

تنتهي الحلقة بنصيحة أخيرة للطلاب، قبل أن يغادروا، تحضهم على التفكير بأكثر من فكرة واحدة. لكن المشكلة تكمن في أن التفكير بدون "معلومات" لا يؤدي إلى تحسن الفهم. فما ينتج الفهم، ويحرر المعنى المغلق الدلالة، ويوفر أجوبة محتملة للمشكلات المستعصية، هو نوعية ودقة المعلومات، بالاقتران مع الفكرة الأصلية. ومدركات "الجناح الغربي"، ووصفته لمعالجة

مشكلة الإرهاب، تظل كالعادة، معبرة عن التقدير والإجلال لأفضل القيم الأمريكية. والمعلومات المتوفرة له تتحول إلى نقطة ضعف يتعذر تجاوزها، وخلل يدفعه للجوء إلى المعلومات المضللة، والتشويش والتعتيم، والنمذجة والتنميط، أي المرآة المثالية التي تعكس الرأي، والملاحظة، والخبرة، والمعرفة، في العالم الموازي الذي هو العالم الحقيقي.

الحلقة الخاصة التي حملت عنوان "اسحق وإسماعيل" من مسلسل "الجناح الغربي" قدمتها نفس الشخصيات. حيث ناشدت المتفرجين التبرع بالمال لضحايا هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ كما قدمت أرباح المسلسل هبة لمساعدتهم. أما ردة الفعل على الحلقة فقد توزعت على قطبين متعارضين، مثلما هي آراء اليمين واليسار حول أسباب الحادي عشر من سبتمبر، والسؤال المربك المحير الذي أثارته الأحداث الفاجعة في ذلك اليوم: "لماذا يكره العالم أمريكا؟". فمن جهة، كان هنالك تأييد للمحاولة الإبداعية لاستكشاف وتقصي أبعاد القضية، ومن جهة أخرى، أدين المسلسل بتهمة المبالغة في الفخر والثقة والاعتداد بالنفس، والتحذلق والافتقار إلى الحكمة العملية، واللجوء إلى أسلوب الوعظ المباشر، والتعجرف والزهو. لكن النقطة المهمة هي أنه لم يكن مجرد "مسلسل تلفزيوني". فالمنطق واللامنطق، والحجج

والبراهين، والتعتيم والتشويش، والأسس المنطقية والذرائع التبريرية، والعبر والتحليلات التاريخية التي قدمها المسلسل حذت حذو كافة التغطيات الإخبارية، والتعليقات، والتحليلات، والمناظرات والمحاورات في العالم الحقيقي. وفي هذه الحالة، كان الواقع الحقيقي مرآة عاكسة؛ لاحت فيها المقدمات المنطقية والمواقع المحصنة التي شيدت على سؤال لماذا يشعر العالم بالكره لأمريكا. وما يوضحه هذا الانعكاس الافتراضي هو أن شروط النقاش والحوار جرى النظر إليها من خلال مرآة داكنة، وضبابية، ومشوهة، وغير دقيقة. لم يكن حظ المسلسل من النجاح أفضل أو أسوأ من حظ السياسيين، والخبراء، والصحفيين. أما أشد ما قدمه تأثيرا، إن كنا على استعداد لتقييمه بذهنية منفتحة، فهو المدى الذي نحتاجه لتجاوز السؤال الوحيد واكتشاف المعنى الكامن وراء ما حدث، وكيف توجب على الرد أن يكون، وأين يمكن العثور على الأمن والآمان والحل الناجع. حتى الآن، مازال التساؤل عن سبب كره وعداء العالم لأمريكا يتقدم التحليلات والدراسات. ولربما يتوجب علينا معاينة السؤال ذاته ورؤية الافتراضات التي تكمن تحته.